

الصراع العماني

بدأ الغزو البرتغالي للبحار العربية في الشرق بعد وقت قصير من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وإيجاد صلة مباشرة بين المحيط الهندي وأوروبا. في أعقاب رحلة فاسكوديكاما الشهيرة في ١٤٩٧ - ١٤٩٨. وتركزت المراحل الأولى للغزو، في إخضاع موانئ شرق إفريقيا، وإنشاء قاعدة قوية على الساحل الغربي للهند. وشهدت سنوات ١٥٠٢ - ١٥٠٧، إخضاع كلوة وزنجبار وسوفالة وممباسا، والتقدم إلى الموانئ الشمالية: لامو وأوجا وبرأوة^(١). وبحلول سنة ١٥٠٩، أي بعد مرور حوالي عشر سنوات على دخول البرتغاليين إلى المحيط الهندي، تم إخضاع ساحل شرق إفريقيا، وإيقاع الدمار بالمستوطنات العربية الممتدة من سوفالة في الجنوب، إلى برأوة في الشمال، مع جزر زنجبار وبمبا ومافيا. وبنجاح البرتغاليين في إيقاع هزيمة كبرى باسطول المماليك في معركة ديو^(٢)، تمكنوا من تأسيس قاعدة قوية في غوا، على

البرتغالي

خلال القرن السابع عشر

الدكتور صالح محمد العابد

الساحل الغربي للهند في ١٥١٠ أصبحت مركز ممتلكاتهم في آسيا واندفع البرتغاليون اكثر نحو الشرق، الى جزر التوابل (اندونيسيا) والملايو واستولوا على مالقا^(٣) في ١٥١٣^(٤). وكان الهدف الاستراتيجي للبرتغال التحكم المطلق بالتجارة الشرقية عن طريق السيطرة على مخرجها التقليدية، ومن ثم محق اقتصاديات العالم الاسلامي المهيمن على هذه التجارة. وهذا يفسر عدم اكتفاء البرتغاليين بالتحكم بالنقاط الاستراتيجية لمرات هذه التجارة، وتبنيهم اسلوب القرصنة والهجمات في البحار العالية ومحاصرة الموانئ لمنع السفن الاسلامية من ممارسة اى نشاط ملاحى او تجارى^(٥). ويتبع ذلك، تأسيس امبراطورية استعمارية تضم شرق افريقيا والهند والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، في المرحلة الاولى، تعقبها مراحل اخرى، باحتلال عدن واختراق البحر الاحمر والتحكم بساحليه^(٦).

ويعود الفضل في تنفيذ ذلك المخطط الى الكابتن افونسو البوكيرك^(٧) الذي اخذ على عاتقه بناء امبراطورية قائمة على اساس متين لا يمكن تحديه في المحيط الهندي. فكان احتلاله لجزيرة سوقطرا في ١٥٠٧، ودخوله الخليج العربي بعدها مباشرة للاستيلاء على موانئه المهمة تطبيقا عمليا للسياسة التي رسمتها البرتغال. وبالسيطرة على سوقطرا والهيمنة على هرمز ومالقا، ثم تأسيس نظام للتحكم يستمد بقاءه وقوته من استمرار تفوق البحرية البرتغالية وعدم تعرضها لاي ضعف طارئ^(٨).

اتسمت عمليات البوكيرك في خليج عمان والخليج العربي باقصى درجات الوحشية والحقد والتدمير، واسفر عنها احتلال معظم موانئ الساحل العماني من رأس الحد الى خورفكان^(٩)، ثم اجبار هرمز^(١٠)، على الخضوع. واقتضى الامر حملة برتغالية كبرى اخرى بقيادة البوكيرك لتثبيت احتلال هرمز في ١٥١٥ التي اصبحت الى جانب مسقط والبحرين، قواعد الارتكاز البرتغالية الرئيسة في الخليج العربي. ولحقبة تزيد على القرن، عانى سكان الخليج العربي مرارة الاضطهاد الشرس من جانب البرتغاليين الذين جعلوا انفسهم سادة الموانئ الرئيسة على جانبي الخليج، واستخدموا مركزهم، بقدر

امكانهم، لمنع اية سفينة اخرى من التجارة. فكانت سفنهم تسيطر على مياهه، وحكامهم ينظمون تجارته باجازات تصدر منهم، والقلعة العظيمة في هرمز تتحكم بمدخله ولم تتمكن اى من دول المنطقة ان تكسر القبضة البرتغالية لانه لم يكن بمقدور احداها تحدى البرتغاليين في البحر^(١١). كما لم تؤد الثورات التي قام بها العرب في الموانئ المختلفة الى زعزعة تلك السيطرة^(١٢).

تعرضت الهيمنة البرتغالية الى الاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة، منها اتحاد العرشين الاسباني والبرتغالي سنة ١٥٨٠^(١٣)، فاصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠، عندما استعادت استقلالها، اذ توجه اهتمام اسبانيا على نحو بين تجاه مستعمراتها في العالم الجديد^(١٤). ومنها تعصب البرتغاليين وقسوتهم، الى جانب ما اتصف به حكامهم وموظفوه من جشع وفساد مما جعل سكان الخليج يمقتونهم^(١٥). هذا، بالاضافة الى ظهور قوى اوروبية اخرى منافسة لهم ولاسيما الانجليز والهولنديون^(١٦). ولكن اهم عوامل تفكك وانهايار السيطرة البرتغالية في رأيي هوتنامى قوة العرب العمانيين في عهد سلالة اليعاربة التي قدر لها ان تحسم الصراع لصالح العرب، وتقضي

على الامبراطورية البرتغالية لا في الخليج العربي وحسب، وانما في غرب المحيط الهندي كذلك.

شكل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي اماما في نهاية ١٦٢٤ منعطف تحول مهما في تاريخ عمان، دخلت فيه عصرا جديدا مجيدا «والامبراطورية البحرية التي سبقتها اليعاربة ستكون ندا للقوى الاوروبية، وبفضل ثروتها اصبحت عمان من جديد قرابة قرن قطرا مزدهرا»^(١٧). وكان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية، هدفا مركزيا للامام ناصر لان ترصين الامامة وثباتها لا يمكن ان يتحقق دون تحرير الموالي، فاذا لم يتم التحكم بها، والحصول على الدخل الذي تقدمه، فان ذلك سيؤدي الى نتائج وخيمة^(١٨) ولكن الامام كان يدرك ان تحقيق ذلك الهدف لن يتم بدون وحدة وطنية تجمع ما بين القبائل العمانية كافة، وان ذلك الهدف سيكون له، دون شك دور حاسم في قوة القبائل وتلاحمها. ولهذا فما ان تحقق له توحيد البلاد^(١٩) حتى وجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير، في نهاية ١٦٣٢ الى قاعدة الوجود البرتغالي في مسقط^(٢٠). التقى الجيش العماني بالقوات البرتغالية في الدويج، قرب مطرح، وفي القتال الذي تلا ذلك، تم تدمير حصون المراقبة المشرفة على مسقط، وقتل عدد

كبير من البرتغاليين، وهرب الباقون الى الحصون الداخلية، ولم يكن بمقدور القائد العماني ان يحقق نتيجة حاسمة، بسبب الضعف الذي اصاب قواته، وقوة تحصينات مسقط، ولهذا وافق على طلب الهدنة الذي تقدم به القائد البرتغالي، متعهدا بعدم التعرض للعمانيين، ومن ثم، لم تسفر الحملة عن نتيجة حاسمة^(٢١). ولهذا وضع الامام خطة بعيدة المدى تستند الى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل، قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسية في مسقط فوجه اهتمامه اولا الى تحرير جلفار (رأس الخيمة) من السيطرة البرتغالية - الفارسية المتمثلة بقلعتين احدهما برتغالية، تعززها عند الساحل سفينتان حربيتان، اما الاخرى فارسية يقود حمايتها المدعو ناصر الدين.

تقدم جيش الامام يقوده على بن احمد، يساعده عدد من قادة اليعاربة، فحاصر القلعة الفارسية. وكانت الحامية تتلقى الدعم من السفينتين الحربيتين البرتغاليتين، ولهذا فقد كان من المتعذر شن هجوم مباشر. ودفع هذا بالقائد العماني الى ان يأمر بالهجوم ليلا على برج مرتبط بالقلعة وتمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، واندفعت مقتحمة القلعة، وبعد قتال لم يستغرق طويلا

استسلمت الحامية الفارسية^(٢٢) وفي خلال ذلك، وصلت تعزيزات عسكرية جديدة لقوات الامام، تتألف من قوة من قبيلة الدهامش يقودها خميس بن رمضان. فاحكم حصار القلعة البرتغالية، التي اضطر قائدها الى طلب الصلح مقابل اخلاء القلعة وبذلك، تم تحرير ساحل السر باكملة في تموز ١٦٣٣^(٢٣). وقد دفع اندحار الفرس وطردهم من جلفار الى لجوئهم للانجليز طلبا للمساعدة، ولكن المشروع فشل حينما اعدم الشاه صفي حاكم شيراز في العام نفسه^(٢٤). شجع هذا الانتصار الامام على مواصلة الجهاد لتحرير صحار. ففي السنة نفسها، اصدر امره الى والي ليوا، حافظ بن سيف، لحشد قوة لهذا الغرض وتقدمت القوة الى صحار حيث واجهت مقاومة ضارية من البرتغاليين الذين تحصنوا داخل قلعتها القوية.. ومن اجل احكام الحصار على المدافعين، بنى القائد العماني قلعة قريبة من القلعة البرتغالية^(٢٥). وتم التوصل الى هدنة وافق البرتغاليون بموجبها على وقف القتال وتسليم مراكزهم المحصنة في مطرح والسماح للعمانيين بالتجارة الحرة من مسقط^(٢٦).

وباشر الامام في مطلع السنة التالية ١٦٣٤، عملياته لتحرير مينائي صور وقریات، وتمكن من تخليصهما

من قبضة البرتغاليين^(٢٧).

وهكذا، خلال عشر سنوات من وصوله الى الإمامة تمكن ناصر بن مرشد من طرد الغزاة من الساحل العماني كله عدا نقطتين فقط، أدت هجماته المتواصلة على المراكز البرتغالية الى تدهور معنوی كبير في نفوس البرتغاليين كان بالامكان استغلاله بمواصلة الضغط على بقية قواعد ارتكازهم في الساحل ولا سيما مسقط. إلا أن تطور الأوضاع الداخلية، عرقل خطة الامام، وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على حركة التمرد التي قادها شيخ بني هلال ناصر بن قطن، تعاونه بعض القبائل. ووقعت سلسلة من المعارك بين الطرفين استغرقت بضع سنين، استغلها البرتغاليون فأعادوا سيطرتهم على صور وقریات. وتمكن الامام بعد جهود مضية أن يقضى على التمرد، وفر ناصر بن قطن الى الاحساء^(٢٨)، وبذل البرتغاليون جهودهم لتشجيع الانشقاقات الداخلية، ففي ١٦٤٣ دعموا حركة تمرد قام بها الشيخ سيف بن محمد حاكم ليوا وساعده بقوة عسكرية، ولكن الامام سارع على رأس قوته فسحق التمرد، وأوقع هزيمة منكرة بالقوة البرتغالية وأسر أفرادها كافة. واتبع ذلك بتطويق الحامية البرتغالية في صحار. وبعد مقاومة غير مجدية أمام إصرار القوات العمانية

التي يقودها الامام بنفسه، استسلمت الحامية في ٧ تشرين الثاني ١٦٤٣ (٢٩). ففتح ذلك الطريق الى طرد البرتغاليين من السواحل العمانية .

وشهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير، وتتويجا للخطة الأولى بانتزاع قاعدة الارتكاز البرتغالية في مسقط، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان الى الهدف. ووصل هذا الجيش الى مسقط في ١٦ آب، وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١١ أيلول، ونجح العرب خلاله من انتزاع معظم تحصينات الميناء، مما أجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح، وتضمنت الشروط التي عرضها القائد العربي : استلام قلعتي صور وقريات، اعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع في مسقط التي يجب إزالة أسوارها، أن يدفع البرتغاليون جزية الى الامام (٣٠). وعد القائد البرتغالي دوم جوليادانورنها (Dom Juliao da Noronha) هذه الشروط ثقيلة جدا، ولهذا استؤنف القتال وتمكنت القوات العربية من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين. فورت كابتن ومكلا، واستمر الضغط بإصرار متزايد على البرتغاليين ستة أسابيع أخرى، مما ولد اليأس في نفوسهم. ووجد دانورنها نفسه مجبرا على التماس الصلح مجددا موافقا على الشروط العربية، وتم توقيع اتفاقية في

٣١ تشرين الأول ١٦٤٨ تضمنت : تدمير قلاع صور وقريات، إزالة القلعتين البرتغالية والعربية في مطرح، وانسحاب القوات المتحاربة منهما، واعلان حيادهما، اعفاء العرب من دفع الضرائب وضمان حرية التجارة، امتناع البرتغاليين عن اقامة تحصينات خارج مسقط (٣١) ويمكننا القول أن هذه الاتفاقية حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي في مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلا محاولة موحدة وقوية لتأمين طردهم منها .

أثارت أنباء الحصار العربي للحامية البرتغالية قلقا كبيرا في الأوساط البرتغالية في كل من مستعمراتها في الهند، وفي العاصمة لشبونة، وسارع نائب الملك في الهند الدوم فيليبي ماسكارنياس (Mas-carenhas) الى إرسال جزء من الأسطول لنجدة الحامية ووصل الأسطول الى مسقط في منتصف تشرين الثاني ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التي تمت بين قائد الحامية والقيادة العربية وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الأسطول، فوجه الاتهام الى دوم جوليادو لعدم صموده أمام الحصار العربي، وأرسله الى غوا حيث ألقى في السجن (٣٢). وحينما وصل نبأ حصار مسقط الى لشبونة، أرسل الملك دوم جوا الرابع (Dom Joao) أوامره في ٤ كانون الثاني طالبا بذل كل جهد من أجل التمسك بمسقط، وزيادة عدد

السفن الحربية في الميناء، ومنع العرب من البقاء في المدينة وتقوية حصن خصب^(٢٣). ولكن في الوقت الذي وصلت فيه تلك الأوامر الى غوا، كان الأمر قد خرج عن إرادة القادة البرتغاليين، وكان العلم العماني يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفي الامام ناصر بن مرشد في ١٠ ربيع الآخر ١٠٥٩ هـ / ٢٣ نيسان ١٦٤٩، بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وأنجز المرحلة الأصعب من مراحل طرد الغزاة. ومع أنه توفي بدون أن يعين خليفة له، فإن القضاة وكبار الشيوخ الذين اجتمعوا في الرستاق يوم وفاته، اجمعوا على انتخاب ابن عمه وقائده العسكري سلطان بن سيف اماما. وأيدت القبائل كافة هذا الاختيار. وشهد عهد الامام الجديد المرحلة الأخيرة من عملية التحرير وطرد الغزاة نهائيا من البلاد. فما أن أعلنت بيعته بالامامة، حتى تقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التي تكلفت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر^(٢٤). وسارعت القبائل بابتهاج مستجيبة لدعوة الامام بحمل السلاح واحتشدت في (سيح الرمل) خارج مطرح^(٢٥) وكانت سنة ١٦٤٩ تقترب من نهايتها حينما تحرك سلطان بن سيف ليباشر العملية الحاسمة التي خطط لها لاستئصال الوجود البرتغالي الذي هيمن على الموانئ المهمة من ساحل عمان، متحديا مشاعر السكان

مدة مائة وأربعين عاما . في مطلع سنة ١٦٥٠ قامت قوة فدائية صغيرة بهجوم ليلي مباغت فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط مجندلة كل من وقف أمامها من الغزاة. وأصيب البرتغاليون بانهيار معنوي تام، فتدافعوا الى السفن الراسية في الميناء والى المركز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة. واندفع العرب نحو أعدائهم ونجحوا في الاستيلاء على سفينتين واحاطوا بالمركز. ولم يتمكن المدافعون وعلى رأسهم الحاكم العام فرانسيسكو دي تافونا من الصمود طويلا، فانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن - الجلالى) تاركين الحرس البلوش لمصيرهم. وفي يوم ٢٣ كانون الثانى استسلمت القلعة، وبعد ثلاثة أيام استسلم المركز^(٢٦). وتراجع الاسطول الذى يقوده براز كدارا داماتوس الى ديو، بعد أن فقد اثنتين من سفنه. ونجد من المناسب ان نقتبس أقوال شاهد عيان لعملية الهجوم على مسقط أوردها مايلىز^(٢٧) : «بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدم ضباطهم على الفور الى الهجوم على أسوار المدينة. وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن أن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل، أصدر أمره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة أطلقها البرتغاليون عليهم من

قلاعهم على المرتفعات، ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم أن يتراجعوا ولم يبالوا بالأعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الأسوار على أشلاء من سقطوا. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من أبواب المدينة، مجبرين المدافعين على الفرار واندفعوا خلف أعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم أحد بالرغم من فرارهم بأقصى سرعة باتجاه القلعة العظيمة حيث مقر الحاكم. وهذه القلعة مبنية على صخرة عظيمة تحيط بها المياه من كل جهاتها تقريبا، والطريق الوحيد المؤدى اليها لا يسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بارتقائه سوية. وأدرك العرب أن اقتحامها أمر مستحيل بدون تضحية جسيمة،

ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل وخسر العرب في الهجوم ما بين أربعة الى خمسة آلاف من رجالهم... وأجبروا المتحصنين في الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط.

وفي الوقت الذي تم فيه تحرير مسقط، نجحت قوة عمانية أخرى في الاستيلاء على حصن خصب (٣٨). وهكذا جاءت نهاية ورتة افونسو البوكيرك في الخليج العربي.

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا كان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو امراً حاسماً لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد من تعرضها للتخريب. وبعد ان نظم اوضاع مسقط، وعين عليها ابن بلعرب حاكماً وامر بترميم اجزاء السور الذي تعرض للتخريب خلال المعارك، ركز اهتمامه على قوته البحرية. فالصراع مع العدو سيكون صراعاً بحرياً بالدرجة الاولى. ولتحقيق نتيجة حاسمة، كان على العمانيين تطوير بناء سفنهم، وتبني طراز جديد من السفن الحربية. وقد شكلت السفن البرتغالية التي اسرها العرب خلال معارك التحرير، نواة الاسطول الحديث (٣٩). وخلال وقت قياسي، تحرر العمانيون من الاسلوب التقليدي في بناء السفن ذات الهيكل الذي تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوروبى من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة. وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبني بالواح مثبتة بالمسامير (٤٠). وتمكن أئمة اليعاربة المتعاقبون (٤١) وحتى عام ١٧١٨، من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية في غرب المحيط الهندي، وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثاني من القرن الثامن عشر.

بالسعى للحصول على مساعدة الفرس ضد العمانيين^(٤٥). وبعد ان توقف الاسطول في ميناء كونك، اتجه الى القطيف وهناك التقى اسطولا عمانيا، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين بعد ان فقدوا سفينة حربية اسرها العرب الى جانب ست سفن تجارية برتغالية^(٤٦).

وفشل اسطول برتغالي اخر اكثر قوة ارسله نائب الملك في آذار ١٦٥٠ في استعادة خصب او اي ميناء اخر على ساحل عمان، امام مقاومة الاسطول العماني^(٤٧). وقد ولد النمو السريع للقوة البحرية العمانية اقصى درجات القلق لدى البرتغاليين، فكتب نائب الملك الى حكومته : «اصبح العرب على ثقة كبرى بانفسهم... بحيث تتطلب مواجهتهم ارسال اسطول كبير، لا من اجل تدميرهم فقط، وانما للحيلولة دون توجههم الى ممباسا، وهو امر اصبح بمقدورهم تحقيقه^(٤٨) وفشل اسطول كبير ثالث ارسل في مايس ١٦٥٢ في تحقيق نتيجة حاسمة^(٤٩).

الهبث هذه الانتصارات الكبيرة التي حققها العمانيون حماستهم فلم يكتف الامام سلطان برد حملات الاغارة البرتغالية على سواحل عمان، بل عمد الى نقل الحرب الى مناطق وجود العدو في المحيط الهندي. ففي ١٦٥٢ هاجمت قطعة من الاسطول العماني الحامية البرتغالية في زنجبار وابادت معظم افرادها ومن بينهم قائد الحامية^(٥٠) وتعرضت المواقع

وصف الكابتن تشارلس لوكير الذي زار مسقط في ١٧٠٦ المدينة واسطولها بقوله^(٤٢) : «تطور هذا الميناء كثيرا على ايدي العرب الذين انتزعوه من القبضة البرتغالية.. ويمتلك العمانيون اربعا وعشرين سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية واحدى سفنهم تحمل ٧٠ مدفعا، وليس في اسطولهم سفينة تحمل اقل من ٢٠ مدفعا. ومع صعوبة الحصول على البارود، فان العرب اكثر الناس سخاء به في كل المناسبات... وتجدهم يرفعون راياتهم الحمر بخيلاء على كل صواري سفنهم». اما هاملتون، فقد قدر الاسطول العماني في سنة ١٧١٥ بأنه يتألف من: «سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا واثنين بـ ٦٠ مدفعا، وواحدة ذات ٥٠ مدفعا، وثمان عشرة سفينة اصغر حجما تحمل ما بين ١٢ الى ٣٢ مدفعا لكل منها، وبعض سفن الترانكي او السفن ذات المجاديف تحمل من ٤ الى ٨ مدافع لكل منها^(٤٣). اما السالمي، فقد قدر قوة الاسطول في الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما^(٤٤).

جاء رد الفعل البرتغالي على الاندحار في مسقط سريعا، فما ان وصلت انباء الهزيمة الى نائب الملك دوم فيليبي، حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربي، واصدر تعليماته الى قائد الاسطول

البرتغالية في الهند الى الهجمات التالية : بومباي في ١٦٥٥ و ١٦٦١ ، وديو في ١٦٦٨ ، و ١٦٧٠ و ١٦٧٦ ، وباسين في ١٦٧٤ ، وسالست في ١٦٩٤ و ١٦٩٩ ، وباسلور ومانغلور في ١٦٩٥ و ١٦٩٦ . وشمل ميدان المعارك غرب المحيط الهندي، وخاض العمانيون صراعا طويلا لتحرير موانئ شرق افريقيا^(٥١). ونجح الامام سيف بن سلطان الاول في تحرير ممباسا بعد حصار متواصل للقاعدة البرتغالية دام اكثر من سنتين^(٥٢). وتقدم الاسطول العماني على طول ساحل شرق افريقيا مجبرا الحاميات البرتغالية على الاستسلام، فتحررت بمبا وزنجبار وباتا وكلوه «واستقبل السكان بسعادة غامرة تحررهم من السيطرة البرتغالية»^(٥٣).

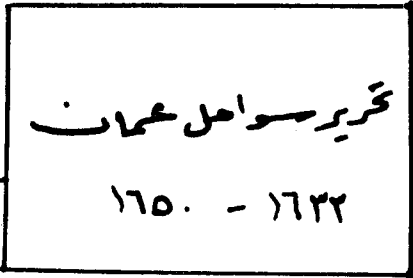
وشجعت الهزائم المتوالية التي اوقعها العرب بالبرتغاليين سكان شرق افريقيا على القيام بثورة شاملة، وتمكن الثوار من تدمير المواقع البرتغالية الاخرى، واصاب الانهيار النفوذ البرتغالي من رأس غوار دانو الى رأس دلغادو^(٥٤).

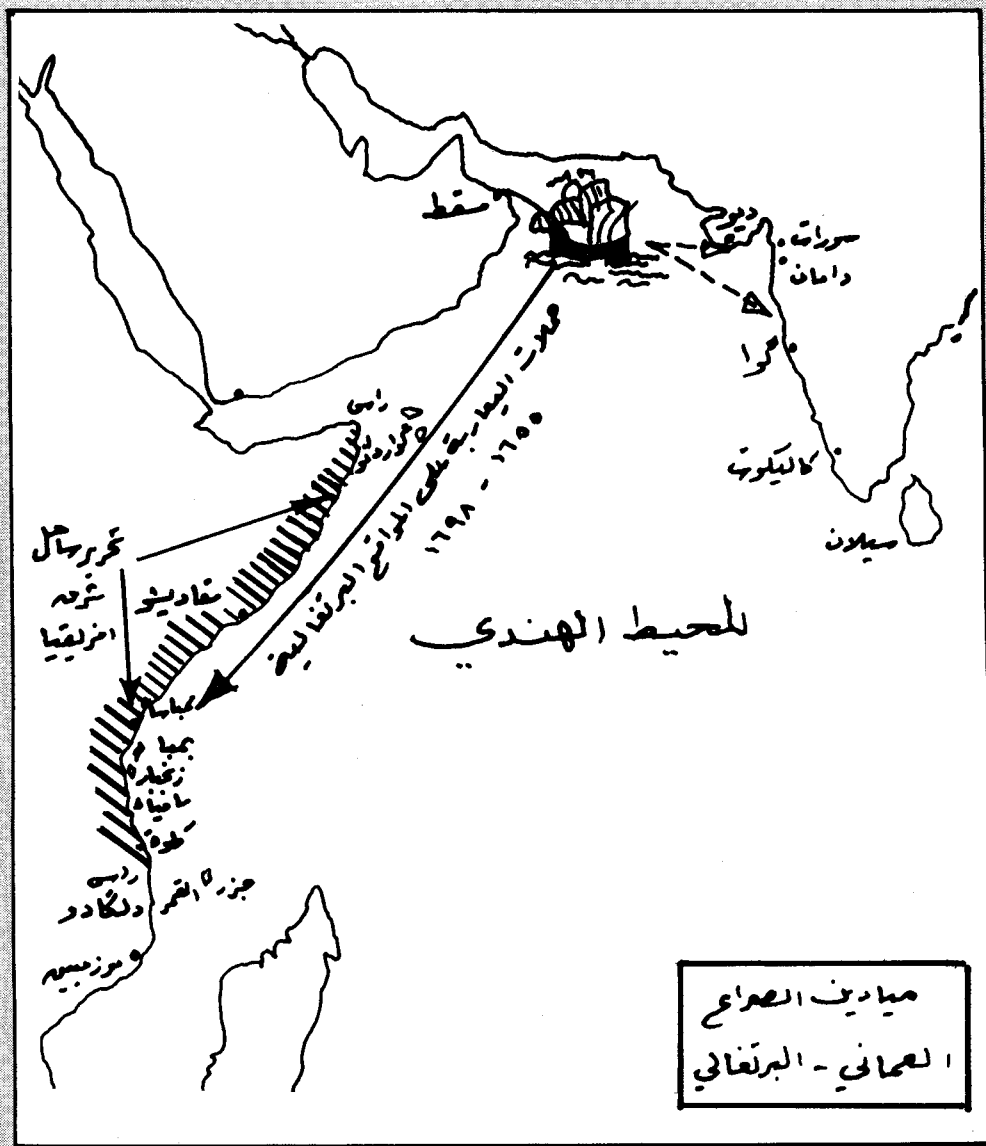
وادت الضربات التي وجهها العرب للمواقع والاساطيل البرتغالية الى اضعاف البرتغاليين عسكريا وشل تجارتهم مما اتاح الفرصة لمنافسيهم الاوروبيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا

وانتزع ممتلكاتهم. فقد شنت هولندا حرب استنزاف على الوجود البرتغالي في جنوب شرق اسيا وتمكنت في ١٦٤١ من انتزع مالقا، وفي ١٦٥٦ استولت على كاليكوت، وفي ١٦٥٨ على سيلان، وتعاقب سقوط القواعد البرتغالية على طول ساحل كورماندل وارخبيل الملايو^(٥٥).

ويتجلى الضعف الذي اصاب البرتغاليين في لجوئهم الى الانجليز طلبا للدعم . وتعتبر المعاهدة المعقودة بين الملك الفونسو السادس وتشارلس الثاني في ٢١ حزيران ١٦٦١، وكانت ثمرة الزواج بين كاترين ابنة ملك البرتغال وملك انجلترا عن ذلك الضعف، اذ تنازلت البرتغال فيها لانجلترا عن جزيرة بومباي ذات الاهمية الاستراتيجية ونصت مادتها الحادية عشرة: من اجل تمكين ملك انجلترا من الدفاع عن رعايا ملك البرتغال ومساعدتهم وحمائيتهم في تلك الانحاء، فان ملك البرتغال ينقل الى ملك انجلترا وورثته، الى الابد ميناء وجزيرة بومباي بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها^(٥٦).

وهكذا فقد ادت الضربات العمانية للبرتغاليين في البر والبحر الى بلوغهم درجة الاعياء «وما ان انتهى القرن السابع عشر، حتى لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين في اي حقل من حقول التجارة الشرقية»^(٥٧). ولم يبق لهم من قواعدهم المنبثة في الشرق الا جيوب قليلة اهمها غوا ودامان^(٥٨).





الهوامش

١ - R.B. Serjeant, The Portuguese off South Arabian Coast, Beirut, 1974, PP. 13 - 14 .

٢ - لتفاصيل تصدى الممالك للبرتغاليين في البحر الاحمر والبحر العربي، يراجع :
د . عبدالعزيز محمد الشناوي، المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرقي جزيرة العرب، بحوث مؤتمر تاريخ الجزيرة العربية، الدوحة ، ١٩٧٦ ، ج-٢ ، ص٦٤٣ - ٦٦١ .

٣ - تقع مالقا على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو، وكانت ذات اهمية كبرى لنظام التجارة الاسلامي لكونها الميناء المؤدى الى الصين وجزر الهند الشرقية ، ينظر : -
Boies Penrose Travel and Discovery in the Renaissance 1420 - 1620
Cambridge 1967,P.62

٤ - K. R. Singh, The Indian Ocean, Columbia, 1978, pp. 5 - 6 .
٥ - ibid, p.6

٦ - الشناوي ، ص ٦١٦ .

٧ - نائب الملك البرتغالي في الهند ١٥٠٩ - ١٥١٥ .

٨ - Singh, p. 7, K.M. Panikar, Asia and Western Dominance, London, 1959, P. 41

٩ - S.B. Miles, Countries and Tribes of the Gulf London, 1966, PP. 143 - 150 .

١٠ - كانت هرمز دولة غنية تسيطر على البحرين وجميع الجزر الواقعة في مضيق هرمز وساحل عمان، وكانت لها تجارة واسعة مع الخارج، ينظر :

Tome Pires, Summa Oriental, An Account of The East From the Red Sea to Japan London, Hak, Soc. 1944 , Vol . I. PP. 19 - 21 .

١١ - ينظر للمؤلف : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٣ ، في الوقت الذي وقفت فيه الدولة الصفوية موقفا سلبيا بتحالفها مع البرتغاليين وعقدها معاهدة ١٥١٥ ، بين الشاه اسماعيل والبوكيرك (ينظر : الشناوي، ص ٦٣٩ - ٦٤١ ، حاولت الدولة العثمانية مجابهة البرتغاليين وطردهم من الخليج العربي، ولكن تلك المحاولات لم تسفر عن زعزعة السيطرة البرتغالية. ينظر:

الميرالاي اسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار، القاهرة، ١٣١٢ هـ، ج ١، ص ٥٤٧ - ٥٥٠ .

J. G. Lorimer, Gazetteer of the Gulf, Oman and Central Arabia, Holland, rep.. 1970. Vol I A, PP. 6 - 7

١٢- للتفاصيل عن الثورات العربية ، يراجع : نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٣ ، ص ١٤٠ - ١٤٤ .

١٣- سقط الملك البرتغالي سياستيان قتيلا في معركة القصر الكبير في مراكش سنة ١٥٧٨ ، فخلفه الامير هنري الابله الذي توفي بعد اقل من سنتين، وبذلك جاءت نهاية سلالة افيس البرتغالية التي اسسها جون الاول. ومن ثم وجد البرتغاليون انفسهم رعايا لفيليب ملك اسبانيا. انظر :

Penrose, p.75.

١٤- Frederick C. Danvers, The Portuguese in India, A History of the Rise and Decline of their Empire, London, 1894, Vol. II, pp. 35 - 40 .

١٥- Abdul Amir Amin, British Interests in the Gulf Leiden, 1967, p. 2.

١٦- العابد ، ص، ٢٥ - ٢٩ .

١٧- J.C. Wilkinson, The Origins of the Oman State, in The Arabian Peninsula, ed. D. Hopwood, London, 1972, p. 82 .

١٨- R.D. Bathurst, The Ya'Rubi Dynasty of Oman (Ph. D Thesis, Oxford University) March, 1967. pp. 85, 108 - 9.

١٩- حول جهود الامام ناصر بن مرشد لتوحيد عمان، يراجع المصدر المعاصر لتلك الاحداث: عبدالله بن خلفان بن قصير، سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق، عبدالمجيد القيسي، عمان ١٩٧٧ ص ١٦ - ٨٧ .

٢٠- Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 82 - 4.

Ibid, p. 85. ٢١

Ibid, pp. 85 - 6. ٢٢

Ibid, p. 86 . ٢٣

٢٤- Bathurst, Maritime, Trade and Imamate Government Two principal Themes in the History of Oman to 1798, in The Arabian peninsula, pp. 98

Miles, pp. 193- 204. ٢٥

عائشة السيار، دولة البعاربة في عمان وشرق افريقيا، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

Bathurst, Maritime, p. 98. ٢٦

Miles, p. 204. ٢٧

٢٨- عبدالله حميد السالمي، تحفه الاعيان بسيرة اهل عمان، ط ٥ ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٠ -

Bathurst, The Ya'Rubi, pp.97 - 100 ، ١٠٢

Miles, p. 194, Bathurst, Maritime, pp. 98- 9 - ٢٩

- ٣٠- سرحان بن سعيد الازكوى، كشف الغمة الجامع لآخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد القيسي ص ١٠١ . Miles p. 194.
- ٣١- Ibid, pp. 195 - 210.
- ٣٢- Ibid, p. 195
- ٣٣- Ibid,
- ٣٤- Bathurst, Maritime, pp. 98- 9
- ٣٥- G. P. Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, by Sali. Ibn Razik, London, 1871
- ٣٦- Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 106- 7
- ومن الجدير بالذكر ان هناك اختلافا بسيطا في تاريخ استسلام الحاكم العام في كتاب (Miles)، ففي الصفحة ١٩٦ يرد التاريخ المذكور في المتن، وفي ص ٢١١ يحدد يوم ٢٨ كانون الثاني .
- ٣٧- Miles, pp. 196 - 7.
- انظر أيضا :
- W. Phillips, Oman, a History, London 1967. pp. 46 - 47
- ٣٨- Bathurst, The Ya'Rubi, p. 111, Miles, p. 198
- ٣٩- Bathurst, Maritime, p. 99
- ٤٠- Robert Landen, Oman Since 1856, Princeton, 1967, p. 54
- ٤١- سلطان بن سيف ١٦٤٩ - ١٦٧٩ ، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩ - ١٦٩٢ سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ - ١٧١١ ، سلطان بن سيف الثاني ١٧١١ - ١٧١٨ .
- ٤٢- Charles Lockyer, An Account of Trade in India, London, 1711, pp. 206 - 7 .
- ٤٣- Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. by : W. Fosger, London, rep 1930, Vol. I. P. 51.
- ٤٤- حدد السالمي طول المدفع بـ (٣٠٠ شبر) ما يقارب سبعة امتار السالمي ص ١٠٠ .
- ٤٥- Bathurst, The Ya'Rubi, p. 112.
- ٤٦- Miles, p. 198
- ٤٧- Ibid, Bathurst, Maritime, p. 99.
- ٤٨- Quoted in: Bathurst, The Ya'Rubi, p.113.
- ٤٩- Ibid, pp. 114 - 5.
- ٥٠- Phillips, p. 47.
- ٥١- Miles, p. 214-215, R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, pp. 65 - 6; Charles Law, History of the Indian Navy 1613 - 1862, London, 1877, Vol. I, pp. 311 - 312.

Freeman Grenville, The Coast 1498 - 1840, in: History of East Africa, ٥٢
Oxford, 1963, PP. 141 - 2.

Miles, pp. 220 - 1. ٥٣

Ibid, p. 222; Phillips, p. 49. ٥٤

William Milbrun, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete ٥٥
Guide, London, 1813, Vol. I, p. 308 - 9.

R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Engagements Between the ٥٦
H.E.I.C and the Native Princes. Bombay, 1851, pp. 563 - 4.

Coupland, p. 53. ٥٧

Singh p. 7 - 8. ٥٨

★★★★★